جورج سالم

منزل في ظاهر البلدة

لاحظ س . بينما هو جالس في المقهى انه يبتسم لرفقائه ويحادثهم ، ولاحظ في الوقت نفسه ، ولاول مرة ، انه انما يفعل ذلك كمن يقوم بتمثيل دور مسرحي اعده الاعداد الكافي الطويل . ولما غادر رفقاؤه المقهى في الوقت الذي اعتادوا ان ينصرفوا فيه ، لبث هو وحده فترة ، لا يدري كم امتدت ؛ ولكنه اذ عاد من شروده وجد ان نادل المقهى يمسح المناضد الفارغة ويرصف الكراسي ويكنس غبار الأرض . اذ ذاك نظر حوله فلم يجد احداً في المقهى ، وعرف انه قد اطال الجلوس ، غير شاعر بما يجري حوله ، وان لا بد له من الذهاب . فقام يرتدي معطفه ، وانطلق وحيداً في شوارع مقفرة في البلدة الواسعة المترامية الارجاء .

وابتسم س . في سره لهذه البادرة الغريبة التي تصدر منه لاول مرة في حياته . ماذا عسى ان تظن به زوجه ، وكيف يفسر هذا التأخر عن العودة ؟ - وهو الذي قضى هذا الشطر من حياته يعيش في انتظام كانتظام ساعة دقيقة : يستيقظ في الصباح الباكر ليمضي الى عمله في الوقت المحدد ، لا يتأخر ابداً ، ويعود بعد الظهر فيبلغ البيت في الساعة الثانية والربع تماماً ليستمع الى موجز الانباء قبل ان يتناول طعام الغداء ، ويخرج في نزهته المسائية عصر كل يوم ليعود قبيل الثامنة مساء ، فيسهر في المنزل أو يستقبل بعض زواره أو يخرج مع زوجه لزيارة بعض الاصدقاء او الاقرباء او حضور احد الافلام السينمائية .

وسار في الطريق التي اعتاد ان يسير فيها كل ليلة ، ولقد جرت العادة ان يخرج س . مع رفقائه فيسيروا معاً في الطريق نفسها مسافة ثم يمضي كل منهم فيسلك الشارع الذي يفضي به الى منزله .

واذ خطا س . بضع خطوات خيل اليه انه ربما اخطأ الطريق ، ذلك لانه لم ير المخازن والدكاكين التي كان يراها ويتوقف امامها ثواني قليلة كل مساء . ولكنه لم يلبث ان ادرك انه يسير في الطريق الصحيحة ، وان تلك المخازن قد اغلقت منذ حين ، ولذلك لم يتعرفها للوهلة الاولى ؛ واذا كان قد وجد ان الطريق غريب عنه فما ذاك الا بسبب انطفاء انوار المخازن التي الف ان يراها دائماً . ولم يحدث قط ان سار في هذه

الطريق وهي مظلمة . ولذلك كله خيل اليه انه انما يسير فيها للمرة الاولى . فتابع سيره في هدوء وتمهل .

ليس يدري لماذا كان يشعر في اعماقه كأنه يسير في نومه . أكان نعسان ، ام ان في الجو شيئاً جديداً لا عهد له به ؟ واخرج مفتاح المنزل من جيبه ، وكان من عادته ان يخرج المفتاح قبل ان يصل الى المنزل ، وهو على بعد أمتار عديدة منه ، ويظل ممسكاً به حتى يرقى سلم البناية فاذا وصل الى الباب اولج المفتاح في القفل وفتحه بسرعة .

الا انه لم يصل ، تلك الليلة ، الى المنزل . وظل ممسكاً بالمفتاح ، وقدر انه ربما اجتاز مدخل البناية شارداً . فعاد ادراجه يبحث ، ولكنه لم يجد البناية . وحار في الأمر : هل هناك خطأ ؟ وفرك عينيه جيداً ، الا انه لم ير اية بناية مألوفة . عند ذلك كفّ عن ان يسير الهوينى ، وراح يحثّ خطاه باحثاً ، فسار في كل الدروب وكان يعود ادراجه في بعض الأحيان او يستدير حول كتلة من المباني ، ليجد نفسه في المكان الذي انطلق منه . وظل يهيم من شارع الى شارع ، ويحوم حول المباني ، ويهوم من رصيف الى رصيف الى رصيف . لقد ضل باب بنايته ولم يستطع ان يعثر عليه ، رغم ان نوراً ضئيلاً كان ينير الشوارع كلها. اين منزله؟ اتراه قد ضاع؟ وهل يضيع رجل في مثل عمره؟ انه يحوم في المنطقة التي يسكن فيها ، لا شك في ذلك . وحاول ان يلج عدداً من المباني ، ولكنه سرعان ما كان يتعرف انها ليست البناية التي فيها يقيم . عجباً ! اين منزله ؟ واين زوجه وامتعته وسريره ؟ اين اضحت كلها ؟ وكيف غدا انساناً بدون منزل بمثل هذه السرعـــة ؟ وخطر له ان يسأل الناس عن منزله ، ولكن من عسى ان يسأل ؟ ان الشوارع لمقفرة ، وها هو ذا الحارس ينظر اليه من بعيد نظرة فيها كثير من الريبة والحذر . هل رأى فيه سحنة لص ؟ وقرر ان يتابع السير واغذّ الخطا ، فاذا به يبصر اضواء من بعيد ، فقصدهـــا . كانت تلك اضواء الشارع الكبير حيث ساحة المدينة والفنادق الكبيرة والسيارات الذاهبة الآيبة . كان النعاس قد اثقل جفنيه وراحت برودة الليل تتسرب الى جسمه ، فقصد احد الفنادق ، وهو الذي لم ينم في اي من فنـادق المدينة قط . كان كل من في الفنـدق نائماً ، غير شاب صغير أخذ منه هويته ، ودله على غرفة فيها سريران ، وقد شغل احدهما رجل مـا . ولم تكن في الفندق كله غرفة فارغة ، فمضى الى السرير الذي دله عليه الشـاب ، واغلق هذا الباب واطفأ النور من الخارج. فخلع س. سترته وحذاءه وتمدد في الفراش بثيابه ، ولكنه لم يذق النوم الا غراراً . كانت هنـاك ضجة مستمرة لا يعرف من أين تأتي ، وكان يتناهى

اليه بين حين وآخر صوت فتح الابواب واغلاقها ووقع خطـــا على الدرج وفي الممرات ، واصوات السيارات من الشارع . وراح يرقب بين الفينة والفينة هذا الرجل النائم في السرير المجاور ، فيراه يتقلب في فراشه وهو يغطّ في نومه ويزفر زفرات طويلة عميقة . ما الذي قاده الى النوم مع هـــذا الغريب ؟ وتألم اذ شعر انه هو أيضاً غريب ، وحنّ الى منزله وسريره ، ولكنه كان على ما يشبه الثقة بان منزله قد اختفى ، ولم يعد له من مكان يأوي اليه . وعاد يتساءل عن هذا الغريب : اتراه يعرفه ؟ اهو انسان مثله أضاع منزله ؟ اهو من معارفه ام زميل له في العمل ؟ اهي زوجه وقد لجأت مثله الى هذا الفندق بعد أن اضاعت منزلها في عودتها اليه هذه الليلة ؟ وقبل ان يستيقظ الغريب ويتعرفه س. ، كان هـذا قد غسل وجهه وارتدى سترته ومضى الى عمله قبل ان يحين موعد الدوام .

وفي الدائرة التي يعمل فيها ، همّ غير مرة ان يروي لزملائه مـــا حدث له في الليلة الفائتة . ولكنه خشي الا يصدقوه ، او يظنوا انه انما يروي لهم حلماً ، ولم يكن يستطيع ان يقنعهم بما حصل له ، فآثر الصمت . وشعر زملاؤه انه يتفرس فيهم ويطيل النظر اليهم ، فأدهشهم تصرفه هـــذا . عم كان يبحث ؟ لقد كان يبحث بينهم عن ذاك الغريب الذي قضى معه الليلة بكاملها في تلك الغرفة اللعينة . ولمـــا انتهى الدوام وفرغ س. من عمله ، هرول الى منزله . كان ذاك في وضح النهار ، ولم يكن ثمة مجال للبحث عن المنزل . فقدر س. انه سيلاقيه بسرعة ، وسيتناول طعام الغداء مع زوجه على عادته . ولكنه حتى في وضح النهار لم يعثر على منزله ايضاً . لقد رأى بعض المنـــازل التي يعرفها ، وبعض الوجوه التي كان يصادفها في طريقه احياناً ، ولكنه لم يعثر على منزله بالتحقيق . وبعـد ان تيقن من ذلك ولم يبق مجال للشك او البحث ، قصد احد المطاعم ليتناول غداءه فيه . ومن هناك مضى الى المقهى ينتظر مقدم رفقائه .

وتوافد الرفقاء واحداً تلو الآخر . وكان س. يحادثهم ويبتسم لهم وهو يشعر بأنه يكرر المسرحية التي ادرك بالأمس انه قد اتقن القيام بها . ولما قرر الرفقـاء ان ينصرفوا مضى معهم . ولكنه لم يجد حاجة الى اعادة البحث عن منزله ، بل رأى ان يذهب الى الفندق توّا ويحجز فيه غرفة خاصة له . ولما كانت الغرف التي تحتوي سريراً واحداً محجوزة كلها ، فقد اضطر الى ان يحجز غرفة ذات سريرين لكيلا يضطر الى ان ينام مع غريب لا يعرفه .

وقرر س. آخر الأمر ان يستأجر بيتاً ينام فيه . ولم يكلفه هذا كبير عناء ، فقـــد ارشده الدلال الى عدد من البيوت ، فاختار واحداً منها مؤثثاً تأثيثاً متواضعاً واستأجره .

ولكنه بعد ايام معدودات عاد فأضاع منزله ، ومفتاحه ، فراح يهيم على وجهه . وعثر له الدلال على منزل آخر بعد شيء من البحث والجهد . واستمر س. يتنقل من منزل الى آخر، ولا يستقر أياماً حتى يضيع منزله فيعمد الى استئجار منزل جديد .

قال له الدلال بعد حين وقد نفد صبره :

« اما الآن فسأؤمن لك منزلاً لا تفقده ولا تشعر فيه بالغربة او بالضياع ابد الدهر !»

فتبعه س . كان ذلك في يوم عاصف من ايام الخريف . فمضى س . مع الدلال وسارا طويلاً صامتين وشعر س. بعد فترة طويلة من السير ان الدلال قد خرج من المنطقة المأهولة من المدينة وصار الى ظاهر البلدة ، فالتفت نحوه يسأله : « ولكن الى اين ؟ »

« الم اقل لك اننا سنعثر على المنزل الذي لا يضيع ؟ تريث قليلاً » .

ولما اصبحت المدينة خلفهما ، سارا في درب جبلي صاعد ، ثم انبسطت في آخره سهول شاسعة مضيئة ، يلتمع عشبها ويتماوج بتأثير الريح الخفيفة . وسارا طويلاً في هذه السهول ، فاحس س . بكثير من الاعياء والتعب ، وودّ في سره لو ينام . وكأن الدلال قدر ما يجول في ذهنه ، فقال له :

« تمالك نفسك قليلاً ، وستستريح في هذا المنزل الجديد . »

وبعد ان قطعا مسافة طويلة مقفرة ، وقف الدلال قليلاً . فتوقف س . بدوره ، وتفحص المكان كله بنظرة سريعة ، ثم قال الدلال في منتهى الهدوء : « ها هنا ! »

فلم يفهم س. شيئاً . عند ذاك طلب اليه الدلال ان يتمدد على الأرض، ففعل ، وهو في خوف وحيرة ودهشة . فانحنى عليه الدلال يسأله : « هل اعجبك المكان ؟ »

ورأى نفسه مضطراً الى ان يجيب دون ان يعي ما يقول : « نعم . »

وحانت منه التفاتة وهو في وضعه ذاك . فلمح بالقرب منه منازل كثيرة ، منازل صامتة تملأ المدى والافق كأنها غيمات صغيرة بيض ملتصقة بالسماء .

صفق الدلال بيديه . واراد س . ان يحتج وان ينهض وان يتمرد . ولكن الوقت اعجله ، اذ شعر ان قسماً من الأرض ، هذا القسم ذاته الذي تمدد فوقه ، يغور في باطن الأرض رويداً رويداً ، وان المنازل الصغيرة تقترب منه وتحيط به من كل جانب وتبتسم له ، وفجأة احس سقفاً من التراب يهال فوقه بسرعة .

ونفض الدلال يديه ، وتمتم صلاة قصيرة ، وعاد وحده من حيث اتى .